المغـــالطة

فى الوسائل والغايات

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

كل انسان ظالم فى أمر واحد أو أكثر من أمر واحد من أمور الحياة ، فان المرء قد تميل به رغائب نفســه وحاجاتها وشعورها حتى يحسب غايته الدنيئة ، ومقصده الوضيع ، ورغبته الخسيسة ، غاية عالية ، ومقصداً نبيلاً ، ورغبة شريفة ؛ وأساسها لو فطن له الغرور والاعجاب بالنفس ، أو محاولة اخفاء نقائصها ، أو محاولة كسب الجاه ، أو المنفعة من حساب غيره ؛ ومتى تهيأ له قبول الغاية الدنيئة ، كأنها غاية نبيلة سهل عليه أن يغالط نفسه مغالطة أخرى ، فيزعم أن الغاية النبيلة تزكى الواسطة الدنيئة . ولا تجد بين الناس من لا يغالط نفسه هذه المغالطة أيضاً فى أمر واحد أو أكثر من أمر واحد من أمور الحياة

وهذه المغالطة المزدوجة تجعل المرء يزكى الواسطة الدنيئة بالغاية الدنيئة ، لأنه أولاً غالط نفســه فحسب الغاية الدنيئة غير دنيئة ، ثم غالط نفسه وحسب هذه الغاية تبرر الواسطة الدنيئة ؛ وقد يغالط المرء نفسه مغالطة ثالثة ، فيحسب الواسطة الدنيئة نبيلة ، وهذا من قبيل الاحتياط إذا لم يستطع أن يزكى عمله لدى الناس بمبدأ تبرير الواسطة بالغاية

وهذه المغالطات الثلاث تصل بالمرء إلى حالة نفسية يرى فيها أنه يحاول بلوغ الغاية النبيلة بالوسيلة النبيلة ، وهو إنما يحاول بلوغ الغاية الدنيئة بالوسيلة الدنيئة . وقلما يفطن الناس إلى هذه المغالطات فى أنفسهم ، وقد يعمون عنها فى نفوس معاشريهم ، فالمرء قد يكون مدفوعاً فى سلوكه بما ركّب فى نفسه من طبائع الشر ، أو لأنه يُمنى نفسه أن فى قوله أو عمله منفعة لنفسه ، أو لأنه يرى فيهما إعلاء لنفسه أو لرغبته فى الظهور بمظهر الغيرة على الخير والحق ومظهر كره الباطل والشر أو لسبب آخر من أسباب عديدة متنوعة ، ولكنه لا يزال يروض نفسه حتى يصرفها عن الأسباب الحقيقية وحتى تعتقد نبل غايتها ومقصدها ، وأن مطلبها الحق أو الفضيلة أو الخير أو الدين ، وقلما تجد فى الناس من يعجز عن أن يقنع نفسه أنه إنما يعادى أو يصادق من أجل هذه المطالب النبيلة الشريفة ، فاذا اقتنعت سهل عليها أن تتخذ الوسائل الدنيئة لمحاربة من ترى فى محاربته ظاهرة انتصار منها لهذه المطالب ، فتتخذ من وسائلها النميمة والكذب واستثارة الأحقاد بالنميمة والغيبة والكذب ، وكل هذه وسائل دنيئة ، وتحيل النفس على المبدأ المعروف الذى يقول أصحابه إن الغاية تبرر الواسطة ، فتكون النفس قد خطت خطوتين فى المغالطة والايهام : الأولى تحويلها الغاية الدنيئة إلى غاية نبيلة ، وهذه خطوة خطتها كى تخطو الخطوة الثانية وهى اعتناق مذهب المبررين للواسطة بنبل الغاية ؛ ولو أصبح هذا المذهب عقيدة عامة مقدسة لانهارت أركان الديانات وتفككت عن النفوس عرى الفضائل وانحلت قيودها وتسفلت النفوس ، ولكن النفوس تأخذ بهذا المبدأ عملياً وفى خفية أو تبثه بطريق الايحاء وهو من أسباب تحول النفوس عن الخير والفضيلة حتى على خفاء العمل به والاحتيال لتزكيته بوسائل النفوس الجشعة المتعطشة للمكاسب كما هى نفوس أكثر الناس فى أحوال كثيرة

وأحسب أنه لولا المغالطة الأولى أى الوهم الذى يقلب الغاية الوضيعة ويجعلها غاية شريفة لما كثر أخذ الناس بالمبدأ الذى يبرر الواسطة بالغاية النبيلة ، إذ أن تلك المغالطة الأولى هى الأساس الذى يبنى عليه هــذا المبدأ فى كثير من الأحوال والذى يبيح للناس كل وسائل الشر فيواقعونها وهم يحسبون أنهم على خير وإلى خير وفضل

وإذا تتبعت غايات الناس فى مساعيهم المختلفة وجدت أن كلاً منهم مهما سفلت غايته يزكيها ويرفع من شأنها ويلبسها لباس الفضيلة أمام نفسه وأمام الناس ، وهو يفعل ذلك إذا كانت غايته وضيعة أكثر مما يفعل إذا كانت غايته رفيعة ، لأن الغاية الرفيعة ليست فى حاجة إلى كل هذا الجهد ، وعلى قدر شعور المرء بحقارة غايته تكون رغبته فى مغالطة نفسه ، وعلى قدر تسفل تلك الغاية يكون غيظه وحنقه ممن يطلعه أو يطلع الناس على حقيقة غايته وأسبابه التى يخفيها . ومن العجيب أنه يحاول أن يستفيد أيضاً من هــذا الغيظ الذى سببه الأنانية فيظهره بمظهر الغضب للحق أو الفضل أو الخير أو الدين ولا يزال بنفسه حتى يقنعها أن غيظها ليس غيظ الأنانى المحنق الذى اطلع أو كاد أن يطلع أو يخشى أن يطلع النــاس على دناءة غايته أو وسائله فيوهمها أنه غيظ مقدس نبيل وغضب شريف ، وهى إذا اقتنعت واعتقدت ذلك سهل عليها اقناع الناس بما اقتنعت به من باطل ، وهنا

منشأهم كبير يقع فيه الناس ، فانهم إذا أبصروا إنساناً عظيم التأثير فى الناس تعديهم شدة اعتقاده واقتناعه حكموا أنه على حق ، ولا سيما إذا كان الحاكم هذا الحكم قليل الخبرة بالنفس الانسانية ، فاذا زادت خبرته بالنفس علم أن شدة اعتقاد الانسان وعظم اقتناعه وما ينشأ عنهما من عدوى تؤدى إلى شدة اعتقاد الناس وعظم اقتناعهم لايدل على أن هذا الانسان على حق فيما يعتقد وفيما أعدى الناس اقتناعه به ، ولكنها سنة مألوفة لدى الباحث فى النفس وهى أن الاحساس الشديد ينتقل كالعدوى لشدته وكذلك الاقتناع العظيم ينتقل من نفس إلى نفس كالعدوى لعظمه لاصوابه ، ولما كان الاقتناع المؤسس على الحقد أو الأنانية شديداً لأنه مؤسس على إحساس شديد وهو الحقد أو الأنانية سهل انتقاله إلى نفوس الناس شأن كل اقتناع مؤسس على إحساس شيء شديد آخر ، وأحسب أن الناس معذورون بعض العذر فى هذه المغالطات النفسية وفى بعض هذا الغيظ والحنق إذا كشف كاشف عن تسفل غاياتهم أو وسائلهم لأنه إذا أتيح لأكثر الناس فهم حقارة غاياتهم ووسائلهم والتأثر بهذا الفهم والتألم من أجل تلك الحقارة ضاعت ثقتهم بأنفسهم وضاعت ثقة الناس بهم واعتراهم الضعف فى معالجة أمور الحياة ومعالجة مطالبهم فيها ولا مراء أن بعض هذه النتائج محمود إذا بلغت بهم منزلة القصد والعدل والحق ولم تنحدر بهم الى منزلة الضعف والعجز ولم تنل من عزائمهم كل منال ، ولكن الناس يعرفون أن نفوسهم قلما تنتقل من إحساس إلى إحساس إلا من نقيض إلى نقيض مثل رقاص الساعة فمن فعل إلى رد فعل ، ومن رأى إلى نقيضه ومن شعور إلى عكسه فتغيرهم النفسى يختلف عن تغير أمور الطبيعة . ومن أجل ذلك ترى أن الناس فى حياتهم وتاريخهم يسبقون سنة التغير فى الطبيعة فيحدث رد فعل ورجعة فى أمورهم كى يرجعوا إلى ما يناسب تغير أمور الطبيعة ، وهذا هو سبب كثرة ما يشاهد من فترات الرجعة ورد الفعل فى تاريخ البشر وفى حياتهم

وهذه الطفرة فى إحساس النفس مشاهدة بصفة خاصة فى العامة والصغار والجهلة والقليلى المدنية أكثر من مشاهدة الباحث لها فى الخاصة والكبار والمتعلمين والكثيرى المدنية . ومن أجل تردد النفس بين الاحساس ونقيضه يخشى الناس على عزيمتهم فى الحياة ويخشون النتائج التى يأتى بها اطلاعهم على حقيقة غاياتهم ووسائلهم ويخشون أن يعرفوا ضعفها بعد اعتقادهم قبلها فهذا أمر يفاجئهم مفاجأة قد تحدث هزة فى النفس وهذه الخشية تزيد غيظهم وحنقهم فيدفعون بالغيظ ذعرهم من أن تنأى بهم ضعة غاياتهم عن عزائم النجاح ومساعيه ، وهم يخشون الفشل والضيعة ، وما قد يكون فيهما من الذل أو فقدان وسائل الحياة نفسها ؛ ولا شيء يدعو إلى القسوة مثل ذعر المرء إذا خشى أن يفقد وسائل الحياة على اختلاف منافعها بفقد اعتقاده نبل غاياته ووسائله حتى ولو كان فقده وسائل الحياة من أجل ذلك بعيد الاحتمال .

ولكن كثيراً ما يحسن المرء ضعة غاياته ووسائله بما يعتقد الناس فيه وما يعتقد هو فى نفسه من الفضل والجاه والنبل والصدق ، ولا تخلو نفس من شيء من هذه الصفات قل أو كثر ، وكلما كثر نصيب المرء من هذه الصفات كثرت حصانه غاياته ووسائله ، ومن أجل ذلك ترى الرجل الذى يعتقد الناس فيه هذه الصفات أقدر على مغالطة الناس ومغالطة نفسه فتسهل هذه المغالطة بما له عند نفسه وعند الناس من ثقة بنصيبه من هذه الصفات ، وهذا الرجل أشد خطراً على الحق والخير إذا غالط نفسه أو غالط الناس لأنه يسهل تصديقه والاقتداء به ولا يحسب أحد أن له غاية حقيرة أو وسيلة دنيئة بجانب ما فى نفسه من صفات الفضل والصدق والحق أو بجانب ما اكتسب من جاه وثقة

وكما أنه يسهل أن تحول الغاية الدنيئة غاية رفيعة نبيلة وأن تعتقد أن تلك الغاية التى صارت نبيلة فى نظرها تبرر الواسطة الوضيعة يسهل أيضاً أن تستغنى النفس عن الخطوة الثانية وهى تبرير الواسطة الوضيعة أو تحويلها الى واسطة نبيلة وابرازها للناس كأنها واسطة شريفة سامية بدل تبريرها بالغاية والقصد ، وهذا من شدة احتياط النفس عند من قد يرفض ذلك التبرير ويأبى تلك التزكية ، ونظرة من الباحث المتقصى وسائل الناس تدل على أنهم يتعامون عن ضعة وسائلهم ويغالون فى ابرازها فى حلة الوسائل السامية وانما الخلاف بينهم فى تزكية كل منهم وسائله واتهام وسائل غيره . وقد يعرض للباحث سؤالان هما هل يتاح للانسان عصر يكثر فيه من بحث نفسه وتقصى حقائقها ؟ وهل يرفع هذا التقصى من نفس الانسان ؟ ؟ أحسب أن هذا لا يكون ما دام ذعره خشية فقدانه وسائل الحياة على اختلاف أنواعها واقعاً محذوراً

عبد الرحمن شكرى